

د. فطيمة بورحلة
جامعة سيدي بلعباس

عني العلماء قديما وحديثا بالدراسات القرآنية بشتى صورها لما لها من أهمية في خدمة كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وكان من جملة ذلك الفاصلة القرآنية التي تشكل مظهرا من مظاهر الإعجاز البياني وسرا من أسرار التعبير في القرآن، وأثر الفاصلة في إضفاء جو مهيب في الخطاب القرآني فارتفع بلفظه ومعناه.

Abstract

The scholars of ancient and modern science quuranic studies in various forms . because of the importance of the service of the book of god dear . which does not come falsehood between his hands and not behind him download from hakim hamid . and was among the quranic passages that constitute a manifestation of graphic miracles and a secret of expression in the Koran and the effect of interval in the introduction of a majestic atmosphere in the koranic . he raised his words and meaning.

القرآن الكريم كتاب الله معجز، وبحر زاخر لا تنقضي أسرارها، ولا تنتهي عجائبه يلهم العقول والقلوب بقول محكم، تلك الحكمة أنبأت عنها لغة هي لغة القرآن التي جعلها في أسمى مراتب اللغات فحظيت بشرف لغة الوحي، نستشف أسرارها في البيان وخصائصها في التعبير والأداء .

والإعجاز اللغوي في النص القرآني حقيقة ظاهرة لا مرء فيها يلمسها كل من يدلف في صفحاته، ويعمل الفكر في آياته. ولعل ذلك ما أسجد الأعرابي حين سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ قوله تعالى ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (94) [سورة الحجر] فقال: سجدت لفصاحته.

ومن مظاهر إعجاز القرآن الكريم أنّ الكلمة فيه وردت في موضعها اللائق بها، فلا يمكن استبدالها بكلمة أخرى وإلا أدى ذلك إلى اضطراب في الكلام ذلك (أنّ كلّ كلمة في القرآن الكريم اسما أو فعلا أو حرفا إنما جاءت لتؤدي رسالة خاصة بها لا يؤديها غيرها من

الكلمات¹. والفاصلة القرآنية كلمة من هذه الكلمات فهي مظهر من مظاهر الإعجاز البياني، وسرّ من أسرار التعبير في القرآن.

أولاً : الفاصلة في اللغة والاصطلاح :

حرّى بنا حين نتصدّى لاستيضاح المفهوم الاصطلاحي للفاصلة أن نبين أنّ مصطلح الفاصلة انبثق من رحم علم القراءات ثمّ انتقل من أئمة القراءات إلى الدرس البلاغي وعلم التفسير. فالى أي حدّ تحتفظ الدلالة الاصطلاحية بالمعنى اللغوي ؟ باعتبار هذه اللفظة ذات وجود مزدوج في المعجمين اللغوي والاصطلاحي معاً، فإذا تتبعنا دلالة لفظة الفاصلة في المعاجم العربية وجدنا لها أصل واحد تلتقي عليه الاستعمالات المختلفة فمادة ف، ص، ل تعني البون ما بين الشيئين، والفصل من الجسد: موضع المفصل... غير أنّ استعمالها في (علوم القرآن) التسمية المقتبسة من قوله تعالى في سورة هود (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1))، وفي ذلك يقول ابن قتيبة (ت276هـ): (أحكمت) أتقنت، شبه ما يحكم من الأمور المتقنة الكاملة، وبهذه الصفة كان القرآن في الأول، ثمّ فصلّ بنقطيعه وتبيين أحكامه وأوامره على محمد صلى الله عليه وسلم فتمّ على بابها، وهذه طريقة الإحكام والتفصيل، إذ الإحكام صفة ذاتية، والتفصيل: إنّما هو بحسب من يفصل له وحكى الطبري (ت310هـ) عن بعض المتأولين (أحكمت) بالأمر والنهي، و(فصلت) بالثواب والعقاب... ونحو هذا من التخصيص الذي هو صحيح المعنى ولكن لا يقتضيه اللفظ، وقيل (فصلت) معناه: فسّرت، وقال الزمخشري (ت538هـ): ثمّ فصلت كما تفصل الفلاند بالدلائل، من دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص، أو جعلت فصولاً سورة سورة، وآية آية، أو فرّقت في التنزيل، ولم تنزل جملة واحدة².

أمّا في موضع آخر وردت (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(3)) [سورة فصلت] قال السّدي (ت127هـ) (فصلت آياته): (بيّنت آياته). أي فسّرت معانيه ففصل بين حرامه وحلاله، وزجره وأمره، ووعدّه ووعدّه.... وقيل فصلت بالمواقف، وأنواع أو آخر الآي، ولم يكن يرجع إلى قافية ولا نحوها كالشعر والسجع... وقرئ (فصلت) بفتح الفاء والصاد مخففة. أي: فرّقت بين الحقّ والباطل³. نجد مدلول الفاصلة هو التفريق بين الآية التي قبلها، والآية التي بعدها.

وتعدّدت تعريفات العلماء لها في هذا المجال من قدماء ومحدثين: أما الزركشي (ت794هـ) فقد استدلّ على آراء العلماء⁴، حيث فرّق بين الفاصلة والسجع بأنّها (كلمة آخر

1 - فضل حسن عباس، قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية (نقد مطاعن، ورد شبهات)، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1987م.

2- أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، تح وتعلّق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود و الشيخ علي محمد معوض دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1413هـ/ 1993م، ج 5/ ص201.

3- المصدر نفسه، ج7، ص 462 - 463.

4- وهم أبو عمرو الداني، إبراهيم الجعبري، الرّماني، و الباقلاني.

الآية، كقافية الشعر وقرينة السجع)⁵، ونفى السجع عن القرآن في قوله (وأما تجنب أسجاع، فلأن أصله من سجع الطير، فشرف القرآن الكريم أن يستعار لشيء فيه لفظ هو أصل في صوت الطائر...ولأن القرآن من صفات الله عز وجل فلا يجوز وصفه بصفة لم يرد الإذن بها وإن صح المعنى)⁶،

ثم يقسم بعد ذلك الفواصل باعتبار المتماثل والمتقارب في الحروف.

ويفرق أبو عمرو الداني (ت 444هـ) أحد أئمة القراءات بين الفواصل ورؤوس الآي منتهيا من ذلك إلى أن الفاصلة هي الكلام المنفصل ممّا بعده. والكلام المنفصل قد يكون رأس آية وغير رأس، وكذلك الفواصل يكن رؤوس أي وغيرها. وكلّ رأس آية فاصلة، وليس كلّ فاصلة رأس آية، فالفاصلة تعمّ النوعين، وتجمع الضربين⁷.

وهو بهذا القول يخالف جمهور العلماء إذ قد تشتمل الآية الواحدة على عدة جمل، وليست كلمة آخر الجملة فاصلة لها بل الفاصلة آخر كلمة في الآية ليعرف بعدها بدء الآية الجديدة بتمام الآية السابقة لها.

والفاصلة عند سيبويه (ت 180هـ) تعني ما ينفصل عنده الكلام سواء أكان رأس آية أم لم يكن يقول (وجميع مالا يحذف في الكلام، وما يختار فيه أن لا يحذف، يحذف في الفواصل والقوافي. فالواصل قول الله عز وجل: "والليل إذا يسر"، "وما كنا نبغ" "ويوم التناد" "والكبير المتعال"⁸، والمعنى نفسه نقابله لدى أي عمرو الداني.

أما الرّماني (ت 384هـ) فقد أولى لها عناية في كتابه "النكت في إعجاز القرآن" ورأى أن الفواصل بلاغة والأسجاع عيب، ذلك أن الفواصل تكون تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فقد تكون المعاني هي التابعة لها فيقول (الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني)⁹.

5 - الزركشي بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1391 هـ/ 1972 م، ج1، ص 53.

6 - المصدر نفسه، ج1، ص 54.

7 - نقلا عن، الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 53-54.

8 - سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت ط1، 1385هـ/ 1966م، ج4، ص 184-185.

9 - الرّماني، (النكت في إعجاز القرآن) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن-في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي- حقّقها وعلق عليها: محمد خلف الله أحمد ود: محمد زغلول سلام دار المعارف، مصر، ط3، 1976م، ص 97.

أما الباقلاني(ت402هـ) ففي حديثه عن الفاصلة القرآنية يفرّق بينها وبين القوافي لأنّها ليست في الطبقة العليا في البلاغة، وقد تقع الفواصل على حروف متجانسة، كما تقع على حروف متقاربة.¹⁰

غير أنّ السيوطي(ت911هـ) تحدّث في النّوع التّاسع والخمسين من كتابه "الإتقان" عن فواصل الآيات فاستند على تعريفات للعلماء في الفاصلة القرآنية ثم ذكر بعد ذلك طرق معرفة الفواصل، ثمّ يعرض بعد ذلك لسؤال: هل يجوز استعمال السّجع في القرآن؟ ويبيّن رأي جمهور العلماء بعدم جواز ذلك¹¹، فالفاصلة (تقع عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها)¹² وهنا إشارة إلى البعد الجمالي الذي تؤدّيه الفاصلة .

وضرب المتأخرون بسهم أوفر في هذا الباب، فأولوا عناية بموضوع الفاصلة القرآنية، ولعلّ أهمّ من تناول هذا الجانب أديب الإسلام مصطفى صادق الرّافعي(ت1356هـ) حيث وقف في كتابه "إعجاز القرآن" على مدى أهميّة الحروف وأصواتها في الفاصلة القرآنية قائلاً: (وتراها أكثر ما تنتهي بالنّون والميم، وهما الحرفان الطّبيعيّان في الموسيقى نفسها، أو بالمدّ، وهو كذلك طبيعي في القرآن، فإن لم تنته بواحدة من هذه كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه، وعلى أنّ ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا في الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قوي يستتبع القالقة أو الصّفير أونحوهما ممّا هو ضروب أخرى من النّظم الموسيقي)¹³ فقد اهتدى الرّافعي إلى أنّ تناسب الأصوات والحروف والحركات في النّظم القرآني هي السّبب الذي جعل الأذان تطرب لسماعه وكأنّ كل عنصر من هذه العناصر يؤدي وظيفته في لحن موسيقي متناسب النّغمات ف(حروفه في كلماته، وكلماته في جملة ألقاها لغويّة رائعة كأنّها لا تتلافها وتناسبها قطعة واحدة)¹⁴، ويبدو من ذلك أنّ الرّافعي اعتبر حروف القرآن مرتّبة من حيث أصواتها ومخارجها، وتناسبها في الجهر والهمس والشّدة والرّخاوة، والتّفشّي والتّكرير.

وبالتالي فهو أوّل من عني من المحدثين بقيمة الأصوات اللّغوية، وجمال نظمها، وبقيمة الألفاظ وحسن تأليفها في النّظم القرآني.

ويعتبر سيّد قطب(ت1966م) من أكثر الدّارسين المحدثين توسّعاً في هذه الدّراسة ضمن حديثه عن "النّصوير الفنّي في القرآن" حيث رأى أنّ في القرآن الكريم إيقاعاً موسيقيّاً

10 - ينظر، الباقلاني أبو بكر، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، دط، دت، ص 271 .

11 - ينظر، السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، علّق عليه: مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 1429هـ/ 2008م، ص609 .

12 - المصدر نفسه، ص610.

13 - الرافعي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط9، 1393هـ/ 1973م، ص227 .

14 - الرافعي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 238 .

متعدّد الأنواع يتناسق مع الجوّ ويؤدّي وظيفة أساسيّة في البيان، كما تحدّث عن نظام الفواصل وتنوّعه في السّور المختلفة، وفي السّورة الواحدة، تبعاً لتنوّع المواقف والأغراض. وقدّم عرضاً موجزاً لما سبق أن اكتشفه العلماء وعبر عنه بـ"النّكت البلاغيّة التي تنبّه إليها العلماء" كأن تأتي الفاصلة ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (120)﴾ [سورة المائدة]، بعد كلام يثبت القدرة، وكأن يعبر بلفظ الرّب في مواضع التّربية والتّعليم فيقول عزّ وجلّ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1)﴾ [سورة العلق]، وهي ألوان أبعد وأرقى في موضوع التّناسب الإيقاعي. ويقول سيّد قطب (إنّ القوافي) (الفواصل) في القرآن غيرها في الشّعر، فهي ليست حرفاً متحدّاً، ولكنها إيقاع متشابه مثل (بصير، حكيم، مبین، مريب) أو مثل (الألباب، الأبصار، النّار، قرار)، أو مثل (خفيا، شقيا، شرقيا، شينا...) ¹⁵. وتظلّ تتنوّع أشكال الفاصلة القرآنية وتعدّد صورها.

وقد خرج محمد الحسناوي بتعريف فقال: (الفاصلة آخر الآية كقافية الشّعر وسجعة النّثر، والتّفصيل توافق أواخر الآي في حروف الرّوي، أوفي الوزن ممّا يقتضيه المعنى وتستريح إليه النفوس) ¹⁶.

واجه الدّارسون صعوبة في تعريف الفاصلة وتحديدّها فقد تكون كلمة، وقد تكون مقطّعا من كلمة وتكون جملة ¹⁷، وهكذا فإنّ الفاصلة تتحقّق باعتبار أصغر وحدة صوتية إلى أعلى وحدة تركيبية وهي الجملة .

هذا هو المفهوم الذي ظل ملازماً لكلمة (الفاصلة) في أحضان علم القراءات قبل أن تصير مصطلحاً ذا سمات جديدة في ظلّ استخدام الدّرس البلاغي لها.

1/ أنواع الفواصل في القرآن الكريم :

إنّ قراءة الآيات بخواتيم فواصلها المتنوّعة تجعلك تقف خاشعاً مبهوراً، تمتلك هزّة من الأعماق وأنت مأخوذ بهذا النّغم الموسيقيّ الشّجيّ، نغم تنقّط به الأنفاس، وتتهجّد به العواطف، وتقشّر له الأبدان، وتتلاشى عنده الأوهام، وتتهاوى عنده الشّهوات، وتتضاءل عنده الدّنيا وبريقها، وتتعاظم عنده الآخرة ونعيمها. يقول الرّافعي (وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلّا صور تامّة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متّفقة مع آياتها في قرار الصّوت اتّفاقاً عجيباً يلائم نوع الصّوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب) ¹⁸، فالفاصلة في القرآن الكريم ركن أساس في تكوين بنيته الإيقاعية ولها دورها الإيقاعي في نهاية الآي، هذا الإيقاع المتعدّد الأبعاد والذي يبدأ من تشاكل الأصوات وتجانسها تماثلاً أو تقارباً، يهدف إلى إحداث تأثير في المتلقّي خاصّة، ولعلّ من

¹⁵- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط11، 1405هـ/1985، ج1، ص547.

¹⁶- محمد الحسناوي، الفاصلة في القرآن، دار عمار، عمان، الأردن، ط2، 1421هـ/2000م، ص29.

¹⁷- ينظر، أبو زيد أحمد، التّناسب البياني في القرآن— دراسة في النظم المعنوي والصّوتي- منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النّجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ص350-351.

¹⁸- الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبوية، ص216.

هذه الأبعاد العنصر البديعي في الفاصلة، فثمة عناصر بديعية درست مفصولة ومستقلة في غالب الأحيان، ودرس جزء منها تحت أنواع الفواصل، يقول أحد المحدثين (والحق أن قيمة الفاصلة في بلاغة النظم القرآني، وحلاوة إيقاعه حقيقة لا تقبل المراء، وما كان للقرآن أن يحافظ عليها، ويختارها بعناية، فيأتي بها متمكنة في موضعها مستقرة في نسقها لو لم يكن لها شأن كبير في بلاغته، وتحقيق أهدافه)¹⁹ والتي تمكن الدارس من الوقوف على طبيعتها الإيقاعية والصوتية.

المتوازي:

يقول الزركشي (قسم البديعيون السجع والفواصل أيضا إلى متواز، ومطرف، ومتوازن)²⁰، ويعتبر المتوازي أشرفها لأن الكلمتين تتفقان حروفا ووزنا كقوله تعالى: (فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (14)) [سورة الغاشية]، وقوله: (وَالْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (48) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ) [سورة آل عمران]²¹. حيث توازي (مرفوعة) لفظة (موضوعة) وزنا وتقفية، فأكسبها جمالا ورونقا. وقال السيوطي في تعريفه (أن يتفقا وزنا وتقفية ولم يكن ما في الأولى مقابلا لما في الثانية في الوزن والتقفية)²²، فالتوازي يكون بين كلمتين على مستوى الوزن وحروف السجع أو التقفية كما في (مرفوعة) و (موضوعة) فهما على وزن مفعولة المقفالتان بالعين وكذلك في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم إني أدرك بك في نحورهم، وأعوذ بك من شرورهم"²³. ففي هذه الأمثلة هناك تناوب إيقاعي مقطعي على مستوى القرائن، هذا التناوب يتحقق فيه قانون الإيقاع الأبرز وهو قانون التكرار، حيث يتم ترجيع مادة صوتية معينة في نهاية المتواليات الصوتيتين وذلك على نسب زمنية متقايسة²⁴. ويجعل الخطيب القزويني (ت739هـ) (الأسجاع في النثر كالقوافي في الشعر، وهو ثلاثة أضرب، مطرف، ومتواز، وترصيع)²⁵، فاستعمل الترصيع بدل المتوازن.

المطرف:

19 - أحمد أبو زيد، التناسب البياني في القرآن، ص352

20 - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص75.

21 - ينظر، المصدر نفسه والصفحة نفسها.

22 - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص104.

23 - ينظر، الخطيب القزويني جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر، الإيضاح في علوم البلاغة- المعاني والبيان والبديع-وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ / 2003م، ص296.

24 - ينظر، أحمد البايبي، القضايا التطريزية في القراءات القرآنية -دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية- عالم الكتب الحديث إربد، الأردن، ط1، 2012، ج2، ص204.

25 - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص296-297.

يقتصر فيها الاتفاق على مقطع الفاصلة، أو حروف السجع فقط، يقول الزركشي (والمطرف أن يتفقا في حروف السجع لا في الوزن، كقوله تعالى في سورة نوح) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14))²⁶، وهكذا نلاحظ الاتفاق بين كلمتي (وقارا) و(أطوارا) في الوقف على الرءاء الممدودة بالألف، وهو ما يشكل طرف الفاصلتين، أي تكرار مادة صوتية واحدة في طرفي السلسلتين الصوتيتين²⁷. ويعبر السيوطي عن هذا الضرب بقوله (فالمطرف أن تختلف الفاصلتان في الوزن وتتفقا في حروف السجع)²⁸، أي وحدة الحرف الأخير في الفاصلتين.

المتوازن:

إذا كان الاتفاق في المطرف يقتصر على حروف السجع فقط فإنه في المتوازن ينحصر في الوزن فقط يقول السيوطي (والمتوازن أن يتفقا في الوزن دون النقية)²⁹، أي يراعى الوزن فقط في مقاطع الكلام كقوله تعالى في سورة الغاشية (وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16)) [سورة الغاشية]، فقد اتفقت الكلمتان (مصفوفة ومبثوثة) في الوزن، وقوله تعالى في سورة الصافات (وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (117) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (118)) فلفظ (الكتاب) و(الصراط) متوازنان، ولفظ (المستبين) و(المستقيم) متوازنان وقوله تعالى في سورة الشورى (وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (16) اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (18) اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (19) مَنْ كَانَ يَرْيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يَرْيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (20) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُصِّيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (21) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (22)).

جمع في فواصلها بين (شديد) و(قريب) و(بعيد) و(عزيز) و(نصيب) و(أليم) و(كبير) وهو في القرآن كثير، وفي المفصل خاصة في قصاره، ومنهم من يذكر بدله الترصيع³⁰، ويسميه القزويني الموازنة وهي أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون

²⁶ - ينظر، الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص76.

²⁷ - ينظر، أحمد البايبي، القضايا التطريزية في القراءات القرآنية - دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية - ج2، ص205.

²⁸ - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص104.

²⁹ - المصدر والصفحة نفسها.

³⁰ - ينظر، الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص76-77.

التقفية³¹، أعطت هذه الفواصل المتوازنة إيقاعاً عذبا للقرآن، ولعلّ هذا ما جعل سيّد قطب يقول (والقوافي [الفواصل] في القرآن غيرها في الشعر، فهي ليست حرفاً متّحداً، ولكنها إيقاع متشابه، مثل: "بصير، حكيم، مبين مريب" أو مثل "الألباب، الأبصار، النار، قرار..."³²)، هذه الكلمات متّحدة في بنيتها المقطعية مما أضفى عليها شيئاً من الشّعْر والموسيقى، ويؤكد قائلاً: (إنّ النّسق القرآني قد جمع بين مزايا النّثر والشّعْر جميعاً. فقد أَعفى التّعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة، فقال بذلك حرّية التّعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامّة، وأخذ في الوقت ذاته من الشّعْر الموسيقى الداخليّة، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التّفاعيل، والتقفية التي تغني عن القوافي، وضمّ ذلك إلى الخصائص التي ذكرنا)³³، إنّها من أبرز أسرار إيقاعه، وهي الفواصل المهيمنة في القرآن الكريم.

المرصّع:

لا يختلف المرصّع عن المتوازن اختلافاً كبيراً، فهما متقاربان أو متداخلان يقول السيوطي (المرصّع أن يتّفقا وزناً وتقفية ويكون ما في الأولى مقابلاً لما في الثانية كذلك نحو قوله تعالى في سورة الغاشية) (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26)) وقوله في سورة الانفطار) (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14))³⁴.

وفي سياق حديث الزركشي عن المتوازن يستعمل بدله التّرصيع، وهو أن يكون المتقدّم من الفقرتين مؤلفاً من كلمات مختلفة، والثاني مؤلفاً من مثلها في ثلاثة أشياء: وهي الوزن والتقفية وتقابل القرائن، قيل: ولم يجئ هذا القسم في القرآن العظيم لما فيه من التّكلف. مثلاً منه قوله تعالى) (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14)) وليس كذلك لورود لفظة "إن" و"في" في كل واحد من الشّطرين وهو مخالف لشرط التّرصيع، إذ شرطه اختلاف الكلمات في الشّطرين جميعاً. وسورة الواقعة من نوع التّرصيع، وتتبع آخر آياتها يدلّ على أنّ فيها موازنة³⁵.

إنّ الزركشي يحدّد ما يقوم عليه التّرصيع وهو الوزن والتقفية، وهو يرى أنّ القرآن خلو من التّرصيع، يقول القزويني معرّفاً التّرصيع (فإن كان ما في إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر ما فيها، مثل ما يقابله من الأخرى في الوزن والتقفية فهو التّرصيع)³⁶. وبناءً على ما سبق، يتمّ استخلاص الطّبيعة التركيبية لهذا المكوّن الإيقاعي،

31 - القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ج2، ص552.

32 - سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص547.

- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق القاهرة، ط1425، 17هـ، 2004م، ص85.³³

34 - ينظر، السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ج2، ص104.

35 - ينظر، الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص77.

36 - القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ج2، ص547.

حيث يكون هناك تعادل المقدار بين الأجزاء، وهو ما يوازي النصوص الشعرية، وبذلك يتحقق أحد قوانين الإيقاع وهو قانون التساوي، كما يتضح من خلال هذا النموذج³⁷ إذا الشَّمْسُ كُورَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13) عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا أُحْضِرْتُ (14) (سورة التكوين).

غير أن الزركشي أضاف إلى هذا التقسيم فواصل باعتبار المتماثل والمتقارب في الحروف فقال (أنّ الفواصل تنقسم إلى ما تماثلت حروفه في المقاطع-وهذا يكون في السجع- وإلى ما تقاربت حروفه في المقاطع ولم تتماثل، وهذا لا يكون سجعاً. ولا يخلو كلّ واحد من هذين القسمين -أعني المتماثل والمتقارب- من أن يأتي طوعاً سهلاً تابعا للمعاني، أو متكلّفاً يتبعه المعنى)³⁸، قد تلتزم بعض سور القرآن الكريم بفاصلة واحدة وتدعى الفواصل المتماثلة بالحروف وهذا شائع ومطرّد في نماذج عدة كقوله تعالى في سورة الطور: (وَالتُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّعْفِ الْمَرْفُوعِ (5)).

وفيهما يتجلّى النغم الصوّتي المتميّز بأبهى صورته، وأروع مظاهره، إذ تنتهي الفاصلة بصوت الراء (الطُّور، مسطور، منشور، المعمور)، وهذه الفاصلة إيقاعها الموسيقي هادر لأنّ الراء صوت متوسط لا هو شديد ولا هو رخو يتّصف بصفة قوّة هي الجهر وبالتالي تكون الفاصلة قد انطلقت واستمرت وختمت بصوت قويّ والذي اقتضى السياق نطقه.

وقوله تعالى في سورة طه: (طه (1) مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى (3) تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا (4) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5)).

وقوله تعالى في سورة الفجر: (وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4)). والتناوب الإيقاعي في الفواصل المتماثلة هو تناوب لسلسلتين مقطعتين (أوسلاسل مقطعية)³⁹، وفيها جميعاً مراعاة للمنهج الصوّتي والبعد الإيقاعي.

تشتمل بعض السور على فواصل متنوّعة، يشعر القارئ أو السامع فيها وكأنّه ينتقل ليس من صوت إلى صوت، وإنّما من إيقاع إلى إيقاع ومن نغمة إلى أخرى كقوله

³⁷ - ينظر، أحمد البايبي، القضايا التطريزية في القراءات القرآنية -دراسة لسانية في الصّوارة الإيقاعية- ج2، ص212.

³⁸ - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص72.

³⁹ - أحمد البايبي، القضايا التطريزية في القراءات القرآنية -دراسة لسانية في الصّوارة الإيقاعية- ج2، ص213.

تعالى في سورة الفاتحة (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4)).

وقوله تعالى في سورة ق: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2)﴾، للتقارب بين الميم والنون في المقطع وبين مقطعي الدال والباء، يقول الزركشي (وهذا لا يسمى سجعاً قطعاً عند القائلين بإطلاق السجع في القرآن، لأنَّ السجع ما تماثلت حروفه. إذا علمت هذا، فاعلم أنَّ فواصل القرآن الكريم لا تخرج عن هذين القسمين، بل تنحصر في التماثلة والمتقاربة)⁴⁰.

ونجد هذا التنويع للفاصلة في السور الطوال كما نجده في القصار أيضاً ومن ذلك مثلاً سورة الطارق تأمل فواصلها (الطارق، الطارق، الثاقب، حافظ، خلق، دافق، الترائب، لقادر، السرائر، ناصر، الرجع، الصدع، فصل، بالهزل، كيدا، كيدا، رويدا) فقد ختمت في ثلاث عشرة فاصلة بأصوات قويّة هي : القاف والباء والطاء والراء والدال وختمت فاصلتان بصوت ضعيف هو اللام، وختمت فاصلتان بصوت لا هو ضعيف ولا هو قوي وهو العين لأنّه يتّصف بصفتي قوّة هما الجهر والاصمات وبصفتي ضعف وهما الاستفال والانفتاح ثمّ إنّ من أصوات التوسّط لا هو شديد ولا هو رخو.

وتتفاضل هذه الأنواع إيقاعياً، يقول القزويني: (وقيل أحسن السجع الفاصلة ما تساوت قرائنه، كقوله تعالى في سورة الواقعة ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (28) وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ (29) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (30)﴾ ثم ما طالت قرينته الثانية)⁴¹، فكلّما تساوت القرانن، إلّا وتوازنت إيقاعياً وجعلت الفواصل شبيهة بالشعر، حيث الأبيات متساوية مقطعيّاً والقوافي متماثلة قطعياً⁴².

وعليه كلّما تماثلت المقاطع كانت أفضل كما في المرصّع والمتوازي وبدرجة أقلّ في المطرف، يقول العسكري (ت1005م) (والذي ينبغي أن يستعمل في هذا الباب ولا بدّ منه هو الازدواج، فإن أمكن أن يكون فاصلتين على حرف واحد، أو ثلاث، أو أربع لا يتجاوز ذلك كان أحسن، فإن جاوز ذلك نسب إلى التكلّف)⁴³. كما قسّم العلماء فواصل القرآن باعتبار الكمّ أو الطول إلى:

- فواصل قصيرة: كقوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (2)﴾ [المرسلات].

- فواصل طويلة: كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّمَيُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (44)﴾ [سورة الأنفال].

40 - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص75.

41 - القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ج2، ص548.

42 - أحمد البايبي، القضايا التطريزية في القراءات القرآنية - دراسة لسانية في الصّوارة الإيقاعية- ج2، ص214.

43 - العسكري، أبو هلال، الصناعتين، الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، ص263.

- فواصل متوسطة: كقوله تعالى ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2) ﴾ [سورة القمر].

2/ علاقة الفاصلة بسياقها :

للفاصلة القرآنية علاقة بسياقها الذي وردت فيه، أو المقطع أو السورة أو حتى الجزء الواحد من القرآن أو بمجموع القرآن الكريم.

وقد أطلق العلماء على علاقة الفاصلة بقرينتها (الآية) انتلاف الفواصل مع ما يدل عليه الكلام قال الزركشي: (اعلم أنّ من المواضع التي يتأكّد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام وأواخره وإيقاع الشيء بما يشاكله فلا بدّ أن تكون المناسبة للمعنى المذكور أولاً، وإلا خرج بعض الكلام عن بعض، وفواصل القرآن العظيم لا تخرج عن ذلك. لكن منه ما يظهر، ومنه ما يستخرج بالتأمّل اللبيب)⁴⁴، وقد حصر العلماء هذا "الانتلاف" في أربعة مواضع هي: التمكن والتصدير والتوشيح والإيغال.

- التمكن:

وهو أن يمهد قبل الفاصلة تمهيدا تأتي به الفاصلة ممكّنة في مكانها، مستقرّة في قرارها، مطمئنّة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة، متعلّقا معناها بمعنى الكلام كلّه تعلّقا تامّا، بحيث لو طرحت اختلّ المعنى، واضطرب الفهم، كقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) ﴾ [سورة المؤمنون]، روى ابن أبي حاتم عن طريق الشعبي عن زيد بن ثابت قال: أُملي عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية، وهنا قال معاذ بن جبل "فتبارك الله أحسن الخالقين" فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال معاذ: ممّ ضحكت يا رسول الله ؟ قال: بها ختمت⁴⁵.

- التصدير:

وهو أن تكون لفظة الفاصلة بعينها تقدّمت في أول الآية⁴⁶، واشتهر بردّ العجز على الصّدر، وقد قسم البديعيون هذا المحسن إلى ثلاثة أقسام⁴⁷ :

الأول:

أن يوافق آخر الفاصلة آخر كلمة في الصّدر نحو قوله تعالى في سورة النساء ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (166) ﴾.

⁴⁴- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص78 .

⁴⁵- ينظر، السيوطي، الإتقان، ج3، ص25 .

⁴⁶- ينظر، المصدر نفسه، ج2، ص104 .

⁴⁷- ينظر، المصدر السابق، ج3، ص262 .

وقوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون ﴾ (37).

الثاني:

أن يوافق آخر الفاصلة أول كلمة من الصدر نحو قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (8).
وقوله تعالى في سورة الشعراء ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ (168).

الثالث:

أن يوافق آخر الفاصلة بعض كلمات صدره نحو قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (10).
وقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ (21).

إنَّ الجمال الإيقاعي لردّ العجز على الصدر يقوم في الأساس على تكرار مادة صوتية في مواقع هامة هي الفواصل والصّدر، فيكسو القول ديباجة ورونقا.

-التّوشيح :

سمّي بهذا الاسم لأنّ الكلام نفسه يدلّ على آخره، ولهذا قيل فيه: إنّ الفاصلة تعلم قبل ذكرها، وسمّاه بعض العلماء المطلع لأنّ صدره مطلع في عجزه، قال تعالى في سورة آل عمران ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (33) فإن اصطفاء المذكورين يعلم منه الفاصلة، إذ المذكورون نوع من جنس العالمين، وقوله تعالى في سورة يس ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾ (37)، فإنّه من كان حافظا لهذه السّورة، متيقّظا إلى أنّ فواصلها النّون المردوفة، وسمع في صدر هذه الآية "وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ" علم أنّ الفاصلة (مظلمون) فإنّ من انسلخ النّهار عن ليله أظلم ما دامت تلك الحال⁴⁸.

-الإيغال :

سمّي بذلك لأنّ المتكلّم قد تجاوز المعنى الذي هو آخذ فيه، وبلغ إلى زيادة على الحدّ كقوله تعالى في سورة المائدة ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (50)، فإنّ الكلام قد تمّ بقوله "ومن أحسن من الله حكما" ثمّ احتاج إلى فاصلة تناسب القرينة الأولى، فلمّا أتى بها أفاد معنى زائد⁴⁹.

3/مظاهر الفاصلة القرآنية: لعل من مظاهر الفواصل في القرآن أنّها تقوم على عدّة ظواهر نرصد منها أربع مظاهر:

48 -الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص95 .

49 - المصدر نفسه، ج3/ص187 .

الأولى: زيادة حرف في الفاصلة يكون له بعده الصّوتي، وفحواه الدّلالي، حتّى تتساوى المقاطع وتتناسب نهايات الفواصل وأبرز مظاهره:

أ- الألف المدية: (ألف الإطلاق)

والتي ختمت بها فواصل جملة من الآيات من سورة الأحزاب ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونَا (10)﴾، ﴿وَأَطَعْنَا الرُّسُولَا (66)﴾، ﴿فَأَصْلُونَا السَّبِيلَا (67)﴾، فالكلمات (الظنون، الرسول، السبيل) ألحقت بألف وكان حقها الفتح مطلقاً دون مدّ الفتحة حتى تكون ألفاً، قال الزركشي (فواصل هذه السّورة منقلبة عن تنوين في الوقف، فزيد على النون ألف لتساوي المقاطع، وتناسب نهايات الفواصل)⁵⁰. وفيها دعوة إلى التأمّل والتفكّر لظاهرة صوتيّة وكأنّ ذلك معني بحدّ ذاته ومقصود إليه.

ب- هاء السكت:

وهي زيادة هاء السكت وإلحاقها في "هي" كما وردت في سورة القارعة في قوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَه (10) نَارٌ حَامِيَةٌ (11)﴾ لتوافق الفاصلة الأولى الثانية ويتجلّى هذا الملمح الصّوتي أكثر في سورة الحاقة عندما يشدّك الوضع الموسيقي الحزين، المنبعث من أقصى الصدر وأواخر الحلق، فتقطع الأنفاس، وتتأهّب العواطف واجمة متفكّرة متطلّعة، بنفسية المتفائل حيناً والمتشائم حيناً آخر، بين اليأس والرجاء والأمل والفرح، يقول الحقّ -تبارك وتعالى- ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَه (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَه (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) فُتُوْفَهَا دَانِيَةٍ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24) وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَه (25) وَلَمْ أَدْر مَا حِسَابِيَه (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَه (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَه (28) هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَه (29)﴾ فلو استعرضنا فواصل الآيات (كتابه ، حسابه ، كتابيه ، حسابيه ، ماله ، سلطانيه) نجدها ألحقت بها هاء السكت رعاية لفواصل الآيات المختومة بالتاء وبالتالي اقتضى السياق نطقها هاء للتوافق.

ونبقى مع الهاء لكن هذه المرّة هاء أصليّة، ختمت بها فواصل سورة المعارج في قوله تعالى ﴿يُبْصِرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمُنْذٍ بِنَبِيَه (11) وَصَاحِبِيَه وَأَخِيَه (12) وَفَصِيلَتِي الَّتِي تُوَوِيَه (13) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيَه (14)﴾.

الثانية: حذف حرف ما عناية بالنسق القرآني، ورعاية للبعد الصّوتي، كما في قوله تعالى ﴿وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4)﴾. حذف الياء من كلمة (يسري) للتخفيف لأنّ مقاطع الفواصل السابقة واللاحقة بالراء أمّا في موضع آخر من السّورة نفسها في قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16)﴾، فقد حذف الياء من الكلمات (أكرمني) (أهانني) لما في النون من غنة عند الوقوف عليها.

⁵⁰ - الزركشي، البرهان، ج1، ص61.

الثالثة: تأخير ما حقه التقديم، وتقديم ما حقه التأخير عناية بتركيب السياق، وتنسيق الألفاظ، وترتيب الفواصل، ويتجلى ذلك في قوله تعالى في سورة طه ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ (67) حيث أحرّ الفاعل (موسى) وحقه التقديم وفي ذلك قال أبو حيان الأندلسي: (وتأخر فاعل أوجس وهو موسى لكونه فاصلة)⁵¹، والأصل في الكلام أن يتصل الفعل بفاعله ويؤخر المفعول (لكن أحرّ الفاعل هذا وهو (موسى) للنكتة البلاغية السابقة)⁵²، أما في قوله تعالى من سورة طه ﴿فَالْقِي السَّحَرَةُ سَجْدًا قَالُوا أَمَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (70)، فقد تقدّم هارون على موسى هنا رعاية لفواصل آيات السورة التي انتهت في أغلبها بالألف والألف المقصورة، وتقدّم موسى على هارون في سورة الأعراف في قوله تعالى ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (122) وذلك (لكون موسى عليه السلام هو المنسوب إليه العصا التي ظهر منها ما ظهر من الإعجاز)⁵³، وأيضاً لأجل الفواصل قدّم موسى وأخر هارون.

4/ وظيفة الفاصلة القرآنية :

يبقى القرآن المعجزة الخالدة على مرّ العصور فقد وصفه الإمام علي رضي الله عنه – فقال (لا تفنى عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد)⁵⁴، ويكفي في بيان إعجازه هذا التحدّي للإنس والجنّ ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (88) [سورة الإسراء] فالقرآن معجز من كلّ نواحيه، ألفاظ جزلة، معان فائقة، أحكام باهرة.

حكى الأصمعي⁵⁵ أنه سمع بنتاً أعرابية في السادسة تنشد:

أستغفر الله لذنبي كلّه قتلت إنساناً بغير حلّه

51 - أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج6، 256 .
52 - الزركشي، البرهان، ج1، ص60 - 61 .
53 - أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج2، ص257 .
54 - قال الترمذي : حدثنا عبد بن حميد حدثنا حسين بن علي الجعفي قال سمعت حمزة الزيات عن أبي المختار الطائي عن بن أخي الحرث الأعور عن الحرث قال مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على علي فقلت يا أمير المؤمنين ألا ترى أنّ الناس قد خاضوا في الأحاديث قال وقد فعلوها قلت نعم قال أما إنّي قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا إنها ستكون فتنة فقلت ما المخرج منها يا رسول الله قال كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا أصحابهما على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه هو الذي لم تنته الجنّ إذا سمعته حتى قالوا إنا سمعنا قرآناً عجبا يهدي إلى الرشد من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت. 14 باب ما جاء في فضل القرآن 2906.

55- ينظر، مجلة كنوز الفرقان، يصدرها الاتحاد العام لجماعة القراء، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، مصر، ط1، العددان الأول والثاني، محرم وصفر 1369هـ، أكتوبر ونوفمبر 1949م، السنة الثانية، ص59 .

مثل غزال ناعم في دله انتصف الليل ولم أصله

فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك! فقالت: ويحك أيعدّ هذا فصاحة مع قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلَيْهِ فِي يَمِّهِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7)﴾ [سورة القصص] فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وبشارتين!

ولذلك لم تأت الفواصل عبثاً في القرآن الكريم، بل جاءت لتؤدّي معنى تتم به الفائدة، وتتصل بظواهر النظم القرآني الإيقاعية والدلالية وقد ذكر الجاحظ (ت255هـ): (أن رجلاً في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ: «فإن زللتكم من بعد ما جاءكم البيّنات فاعلموا أن الله غفور رحيم» فقال أعرابي لا يكون وفي رواية أخرى أنه قال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا الحكيم، لا يذكر الغفران عند الزلّ لأتّه إغراء عليه)⁵⁶. هذا ما ذكره الأعرابي بطبعه وسليقته وسجيّته. إذن الفاصلة القرآنية لم تأت لغرض لفظي فحسب وإنما جاءت لغرض معنوي يحتمه السياق وتقتضيه الحكمة الإلهية.

وفي ردّ للدكتور فضل عباس⁵⁷ على دائرة المعارف البريطانية التي ادّعت أن القرآن مجرد إنشاء بطريقة عشوائية، واستدلّت على هذه الدّعوى بالفواصل القرآنية، مثل "إن الله عليم"، "إن الله حكيم"، "إن الله يعلم ما لا تعلمون" أن هذه الأخيرة لا علاقة لها مع ما قبلها، وأنها وضعت فقط لتنمिम السّجع والقافية.

والفاصلة القرآنية لها وظيفتان، الأولى معنوية يقتضيهما السياق وهي الأساسية والغرض المعنوي للقرآن هو المعنى الذي تؤدّيه الفاصلة، فارتباط الفاصلة بالسياق أمر أساسي إذ يرتبط بالفكرة والهدف. وأحياناً لا يراعي القرآن الكريم الفاصلة بل قد تأتي مغايرة عن غيرها وهذا دليل على أن المقصود بالدرجة الأولى هو المعنى.

وقد تكون الفاصلة والمعنى غير منته، فليست الفواصل هي دائماً تامّة المعنى فقد تكون متعلّقة بما قبلها أو ما بعدها كما في قوله تعالى في سورة الرّحمن (مدهامتان) فالآيات ليست وحدات مستقلة المعنى قد تكون تامّة وقد تكون متعلّقة بما قبلها أو بعدها. والثانية لفظية تتصل بجمال الإيقاع فالواصل وتشاكل مقاطعها جزء من الإيقاع في النظم القرآني.

ثانياً: الملامح الجمالية للفاصلة القرآنية :

اعتنى القرآن بالجرس والإيقاع باعتناؤه بالمعنى، وهو لذلك يتخيّر الألفاظ تخييراً يقوم على أساس من تحقيق الموسيقى المتسقة مع جوّ الآية وجوّ السياق، بل جوّ السّورة كلّها في كثير من الأحيان، هذا القرآن الذي ما أن سمع بعضه الوليد بن المغيرة أعدى عدوّ للإسلام حتى قال قولته المشهورة والمنصفة التي تشهد للقرآن شهادة حقّ وصدق (والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ

⁵⁶ - الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط7، 1418هـ/1998م، ج1، ص269.

- ينظر، فضل حسن عباس، قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، ص82. ⁵⁷

أعلاه لمثمر، وإنَّ أسفله لمغدق، وإنَّه ليعلى وما يعلى عليه، وما يقول هذا بشر⁵⁸، فإذا كانت حلاوته هي دلالاته ومعانيه، فما هي طلاوته؟ إنَّها أصواته ذات الأثر الموسيقي الخاص الموحى إلى السَّمع بتأثيرات مستقلة تمام الاستقلال عن تأثيرات المعنى وعن مجرد كون اللفظ رقيقاً وغير رقيق. فالإيقاع والتلاؤم مع الموضوع ملحق جمالي في أداء الفاصلة لوظيفتها. وقد تنبّه لذلك الرافعي وأكّد قيمتها في جمال النظم الموسيقي فهي (متفقة مع آياتها في قرار الصّوت اتّفاقاً عجيباً، يلائم نوع الصّوت الذي يساق عليه ... وتراها أكثر ما تنتهي بالنّون والميم، وهما الحرفان الطّبيعيّان في الموسيقى نفسها، أو بالمدّ، وهو كذلك طبيعيّ في القرآن)⁵⁹. لأنّ الفواصل في الآيات فيها تمهّل واستقرار، ويغلب عليها التّساوي في الوزن والتّوازن في الإيقاع.

ونظم القرآن ونغمه ينبعث من الحروف والكلمات والأسلوب، لذلك (انفرد القرآن بهذا الوجه للعجز، فتألّفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها، أو أبدل بغيره، أو أقحم معه حرف آخر، لكان ذلك خلا بيبنا في نسق الوزن، وجرس النّغمة في حسّ السَّمع وذوق اللّسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج، وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض ولرايت لذلك هجنة في السَّمع)⁶⁰، فحروف القرآن متآخية في كلمات ذات إيقاع موسيقي ونغم تهتزّ المشاعر منها اهتزازاً وتسكن النفوس مطمئنّة راضية ويختلج الوجدان متأثراً ومنفعلاً ويطرب القلب حين يدرك المعنى مصحوباً بإيقاع مؤثّر يرهف الحسّ ويرقّق الوجدان.

أمّا التلاؤم فيرتبط بالإيقاع الهادئ، والإيقاع الهادر الصّاخب ولكلّ منهما موضعهما الملائم لهما. والإيقاع في القرآن الكريم مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجانب الصّوتي، ممّا جعل النّص القرآني يكتسي خاصيّة دون سائر النّصوص الأخرى، فأصبح طيّعاً للتّرتيل (متلّوا لا يملّ على طول التّلاوة، ومسموعاً لا تمجّه الأذان، وغضّاً لا يخلق من كثرة التّرداد)⁶¹.

ومن ثمّ أكسبت الفاصلة القرآن الكريم إيقاعاً متميّزاً، كما أعطته جمالا إيقاعياً متميّزاً ممّا جعلها تتقاطع أحياناً مع الوزن الشعري، وقد تفتّن الدّارسون قديماً وحديثاً إلى أثر الفاصلة في إضفاء جوّ مهيب في الخطاب القرآني كالزّركشي حين يقول: (وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطّريقة التي يباين بها القرآن سائر الكلام)⁶². فارتفع بلفظه ومعناه.

58 - ابن هشام، عبد الملك بن أيّوب، السّيرة النّبوية (سيرة ابن هشام)، تحقيق: عمر عبد السّلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط3، 1410هـ/ 1990م، ص302-303.

59 - الرافعي، إعجاز القرآن، ص217.

60 - الرافعي، إعجاز القرآن، ص217.

61 - الرّماني، التّكت في إعجاز القرآن، ص89.

62 - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص84.

الهوامش:

- 01- أحمد البايبي، القضايا التطريزية في القراءات القرآنية -دراسة لسانية في الصّوارة الإيقاعية- عالم الكتب الحديث إربد، الأردن، ط1، 2012.
- 02 الباقلاني أبو بكر، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، دط، دت.
- 03 الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط7، 1418هـ/1998م.
- 04 أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، تح وت: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود و الشيخ علي محمد معوض دار الكتب العلمية، بيروت ، ط1، 1413هـ/1993م.
- 05 الخطيب القزويني جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر، الإيضاح في علوم البلاغة-المعاني والبيان والبدیع-وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/2003م.
- 06 الرافعي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط9، 1393هـ/1973م.
- 07 الرّماني، (النكت في إعجاز القرآن) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن-في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي- حقّقها وعلّق عليها: محمد خلف الله أحمد ود: محمد زغلول سلام دار المعارف، مصر، ط3، 1976م.
- 08 الزّركشي بدر الدّين، البرهان في علوم القرآن، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1391 هـ/ 1972م
- 09 أبو زيد أحمد، التناسب البياني في القرآن -دراسة في النظم المعنوي والصّوتي- منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة التّجّاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب.
- 10 سيّويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت ط1، 1385هـ/1966م.
- 11 سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق القاهرة، ط1425، 17هـ، 2004م.
- 12 سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط11، 1405هـ/1985.
- 13 السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، علّق عليه: مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 1429هـ/2008م.
- 14 العسكري، أبو هلال، الصناعتين، الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان.
- 15 فضل حسن عباس، قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية (نقد مطاعن، ورد شبهات)، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، دط، 1987م.
- 16 مجلة كنوز الفرقان، يصدرها الاتحاد العام لجماعة القراء، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، مصر، ط1، العددان الأول والثاني، محرم وصفر 1369هـ، أكتوبر ونوفمبر 1949م.
- 17 محمد الحسنائي، الفاصلة في القرآن، دار عمار، عمان، الأردن، ط2، 1421هـ/2000م.
- 18 ابن هشام، عبد الملك بن أيوب، السيرة النبوية (سيرة ابن هشام)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط3، 1410هـ/1990م.